الخليل بن أحمد الفراهيدي
سيد العلماء في عصره

كان الخليلُ بنُ أحمدَ الفراهيدىّ إمامًا فى النحو ، وعنه أخذ «سيبويه» علوم الأدب . فهو الأستاذ الأكبر لسيبويه !

ويقال : إن أباه «أحمد» أول من سُمّى بأحمد بعد رسول الله ﷺ ، فقد ذكر النسابون أنهم لا يعرفون بين النبى ﷺ وأبى الخليل من اسمه «أحمد» سواه .

وكانت ولادته فى سنة مئة للهجرة .

وتوفى سنة سبعين ، وقيل خمس وسبعين ومئة .

وكان سبب موته أنه قال :

أريد أن أقرب نوعا من الحساب تمضى به الجارية إلى البياع فلا يمكنه ظلمها .

ودخل المسجد ،وهو يُعْمِلُ فكره فى ذلك ، فصدمته سارية (عمود) وهو غافل عنها بفكره ، فانقلب على ظهره ، فكانت سبب موته !

ترى لو عاش إلى زمن «الحاسوب» فماذا كان يعمل من آلات وحاسبات ؟!

وكان الخليل رجلا صالحا عفيفا عزيز النفس عاقلا حليما وقورا .

ومن كلامه :لا يعلم الإنسان خطأ معلمه حتى يجالس غيره .

ويقول تلميذه النضر بن شُمَيْل : أقام الخليل فى خُصٍّ من

أخصاص البصرة ، لا يقدر على فَلْسين ، وأصحابهُ يكسبون بعلمه الأموال .

ولقد سمعته يقول يوما : إنى لأُغلق علىَّ بابى فما يجاوزه همى.

وكان يقول : أكمل ما يكون الإنسان عقلا وذهنا إذا بلغ أربعين سنة ، وهى السن التى بعث الله تعالى فيها محمدًا ﷺ، وأصفى ما يكون ذهن الإنسان وقت السَّحَر ! (آخر الليل قبيل الفجر)

ويقال : إن الخليل دعا بمكة أن يرزق علما لم يسبقه أحد إليه ، ولا يؤخذ إلا منه !

فلما رجع من حَجه فتح عليه بعلم العَرُوض ، وهو علم موازين الشعر ، يعرض عليه الشعر ، فيعرف ما كان منه موزونا وما كان مكسورا .

ويقال : «إن دولة الإسلام» لم تخرج أبدع للعلوم التى لم يكن لها عند علماء العرب أصول - من الخليل، وليس على ذلك برهان أوضح من «علم العَروض» الذى لم يأخذه عن أحد ، وإنما اخترعه على غير مثال سابق ، وهو يمر بسوق النحاسين، وهو يسمع وقع طرقاتهم ! ، ويردد« تِنْ تن ، تِتِنْ تِتِنْ».

فلا عجب إذا قيل فيه : «أغزر علما من الخليل»

وأطلق عليه : «مفتاح العلوم» و«أذكى العرب» وحسبه أنه أول من فكر فى إنشاء معجم لغوى وسماه «كتاب العين» .

هذا هو الخليل بن أحمد ، ونعم الخليل فى هذه الرحلة التى نحيا معه فيها ، فهنيئا لك بخُلّته .

هكذا يكون المعلم !

يحكى عن الخليل بن أحمد أنه قال :

كان يتردد إلىَّ شخص يتعلم العَروض «موازين الشعر» ، وهو بعيد الفهمِ ، فأقام مدة ، ولم يعلق على خاطره شىء منه فقلت له يوما : قطع هذا البيت :

إذا لم تستطع شيئًا فدَعْهُ

وجَاوزْه إلى ما تَسْتطيعُ

فشرع معى فى تقطيعه على قدر معرفته ، ثم نهض ، ولم يعد يجىء إلىّ ، فعجبت من فِطنته لما قصدته فى البيت مع بُعْدِ فهمه ! فياليت الذى لايحسن شيئاً مَّا يبحث عن غيره !

وهكذا يفعل الحب

دخل عليه أبو محمد اليزيدى ، فوجده جالسًا على طَنْفَسة[1] صغيرةٍ ، والناس بين يديه ، فقال له : تعالَ إلى جانبى ، وهو لا يجد مكانا فأفسح له ، وهو يقول : إن شبرا فى شبر يسع متحابين ، وإن الدنيا بحذافيرها لا تسع متباغضين .

البيت المحبب لديه !

يحكى أن الخليل بن أحمد كان ينشد كثيرا البيت الآتى ، وهو للأخطل :

وإذا افتقرتَ إلى الذَّخَائرِ لم تجدْ

ذُخْرًا يَكُونُ كصَالحِ الأعمالِ [2]

(١) الطَّنْفَسَة : البساط بكسر الباء ـ وجمعتها طنافس . ومثلُهاالنُمْرُقة ، وجمعها نمارق .

(٢) الذخائر : جمع ذخيرة ، مايدخر لوقت الحاجة ، والعمل الصالح ينفع الإنسان في حياته ، وأبناءه بعد مماته ﴿وكان أبوهما صالحا﴾ [الكهف ٨٢] .

الرجال أربعة

قال الخليل لجلسائه ، وقد ضايقه رجل فزارى أحمق فى مجلسه :

الرجال أربعة :

● فرجل يدرى ، ويدرى أنه يدرى ، فذلك عالم ، فاسألوه .

● ورجل يدرى ، ولا يدرى أنه يدرى ؛ فذلك غافل ؛ فأيقظوه.

● ورجل لايدرى ، ويدرى أنه لايدرى ؛ فذلك جاهل ؛ فعلموه .

● ورجل لايدرى ، ولايدرى أنه لا يدرى ، فذلك مائق جدّ أحمق ، فارفضوه ، ثم يلتفت إلى الفزارى ويقول :

ومن أعجب الأشياء أنك مائق [1]

وأنك لا تدرى بأنك لا تدرى

الخليل وابنه

استغرق الخليل فى ضبط أوزان الشعر ، ووضع تفاعيله ، والإلمام بمقاطعه ، وقوافيه أياما ، وليالى حتى أخرجه للناس علما كاملا لا يحتاج إلى إضافة أحد .

كان يلزم بيته ، ويغلق على نفسه باب حجرته ، ويقضى الساعات الطويلة بها ، محركا ذراعيه ، وموقّعًا بأصابع يديه ، وضاربا الأرض بقدميه ، وراكضا برجليه ، حتى وصل فى هذا العلم إلى ماوصل إليه !

ويحكى أن ولده «عبد الرحمن» دخل عليه حجرته، وهو

(٢) المائق : الأحمق .

مشغول بتقطيع بيت من الشِّعر بأوزان العروض على هذه الحال دون أن يفطن إليه ، فاستغربَ حركاته وإشاراته ، وبلغ به العجب من كلامه وتفعيلاته ، فظن به الظنون ، وأنه قد أصابه الجنون، فخرج إلى الناس صائحا : أبى ... أبى .. جُن أبى ... جُنّ أبى ، ولما بلغ الخليل بن أحمد ذلك عز عليه الأمر، وقال معاتبا ولده بالبيتين الآتيين :

لو كنتَ تعلمُ ما أقولُ عَذَرْتَنى

أو كنتَ تعلمُ ما تقولُ عَذَلْتُكَا [1]

لكن جَهِلْت مقالتى فعذَلْتَنِى

وعلمتُ أنك جاهلٌ فعَذَرتُكا!!

رباعيات

قال الخليل بن أحمد : أربعة تُعْرفُ بهنّ الآخرة :

- الصفح قبل الاستقالة [2] .
- وتقديمُ حُسْن الظّنِّ قبل التُّهمة .
- والبذل قبل المسألة (السؤال) .
- والتماس العذر قبل العَتب . (اللّوم) [3] .

عزة نفسه

كان الخليل شاعرًا مُقلاً ، وقد عاش طول حياته بالبصرة مقيما على الفاقة ، والتقشف ؛ لأنه كان زاهدا فى الدنيا ، منقطعا إلى العلم ، مترفعا بنفسه عن مواقف الضراعة والهوان ، ومما يروى فى ذلك أن «سُليمانَ بن علىّ بن المهلب بن

(١) عذلتك : لُمتُك (٢) الاستقالة : طلب الصفح .

(٣) وكان السابقون يقولون : «لَعَلّ له عُذرًا وأنت تلوم» .

أبى صُفْرة» كان والى فارس والأهواز ، فبعث إليه رسولا يستدعيه إليه ليتولى تأديب ولده ، مع إجزال العطاء وحسن الجزاء ، فما كان من الخليل إلا أن أخرج إلى رسول «سليمان» عندما حان وقت الغداء - خبزا يابساً قفارًا ، وقال له : تفضل بأكله معى ، فما عندى غيره ، ومادمتُ أجده ، فلا حاجة بى إلى سليمان ومال سليمان !

فقال له الرسول : فماذا أقول له ؟ ، ومارَدّك على رسالته؟

فأجابه على الفور :

أبلغ سُلَيْمانَ أنى عنه فى سَعَةٍ
وفى غنى غيرَ أنى لستُ ذا مالِ
شُحًا بنفسىَ إنى لا أرى أحدًا
يموت هَزْلا ، ولا يبقى على حال
والفقرُ فى النفسِ لا فى المالِ تعرفه
ومثلُ ذاكَ الغِنَى فى النفسِ لا المالِ
فالرزْقُ عن قدَرٍ لا العَجزُ يُنْقصُه
ولا يزيدُك فيه حولُ محْتالِ

فقطع عنه سليمان راتبا كان له عليه ، فقال الخليل :

إنّ الذى شَقّ فمى ضامن
للرزق حتى يتوفّانى
حرمتنى مالاً قليلا فما
زادك فى مالك حِرمانى !

فلما بلغت الأبياتُ سليمانَ أقامته وأقعدته ، وكتب إلى الخليل يعتذر إليه ، وأضعف راتبه ، فقال الخليل :

وزلّةٍ يُكْثِـرُ الشـيطانُ إنْ ذُكِـرَتْ

منهـا التـعـجبَ جـاءت مـن سُلَيْـمـانـاَ

لا تعـجَبَنّ لخـيـرٍ زَلّ عن يده

فـالكوكبُ النحسُ يَسْـقى الأرض أحـيـانـا!

فضله وعلو همته

مما يدل على فضله وعلو همته قوله :

«إنى إذا خرجت من منزلى ألقى ثلاثة» :

- إما رجلاً أعلم منى فذلك «يوم فائدة» .
- وإما رجلا مثلى ؛ فذلك يوم «مذاكرة» . (نتذاكر فيه العلم ونتدارسه) .
- وإما رجلا دُونى ؛ فذلك يوم «ثواب وإفادة» .

وقد عاش ذلك الرجل العظيم طوال دهره منكبًا على العلم ؛ متعلما ، ومُسْتَنْبِطًا ، ومؤلفا ، ومعلما .

وعامة ما يُحكى فى «كتاب سيبويه» عن الخليل وكلما قال سيبويه فى كتابه :

«سألته» أو «قال» فهو إنما يعنى الخليل .

وقد كان الخليل يلقب بسيد علماء عصره .

وفى سماء النحو تتراءى لنا ثلاث شخصيات عظيمة لا تنسى هم :

أبو الأسود الدُّؤلى ، والخليل بن أحمد ، وسيبويه صاحب «الكتاب» ، وهو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قَنْبر !

قالوا ..

● لم يكن بعد الصحابة أذكى من الخليل ، ولا أجمع لعلم العرب !

● ويقول سفيان بن عُيَيْنَة واصفًا علم الخليل وأخلاقه :

«من أحبّ أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد» .

● ويقول النّضْر بن شُمَيْل : «أكلَتِ الدنيا بأدب الخليل وكتبه، وهو فى خُصّ [1] لا يُشْعَر به ».

● قال فى عبقريته الفذة بعض أهل العلم :

إنه لا يجوز (يمرّ) على الصراط بعد الأنبياء - عليهم السلام - أحد أدق ذهنًا من الخليل !

● ويقول أبو حاتم :

قد صاغه الله من تبر ومن ذهب

وصاغ راحته من عارض هطل [2]

● ويقول السيرافى : كان الغاية فى استخراج مسائل النحو ، والقياس فيه» .

أوّليّات !

● حسب «الخليل» فخرا أنه أول من ابتكر فكرة : «المعاجم اللغوية» فى العالم على الإطلاق !

---

(١) الخص - بضم الخاء - بيت من شجر أو أعواد «الغاب» مسقوف بأخشاب ..

(٢) التِّبْر : فتات الذهب والفضة قبل أن يصاغا ، والعارض : السحاب ، وهطل : كثير المطر والخير ، والراحة : باطن الكف ، والمقصود أنه كريم جواد .

والجميع متفقون على أن فكرة جمع اللغة على نمط معجم مرتب مبوب هى من ابتداع « الخليل بن أحمد » ، وأنه واضع فكرة «كتاب العين» ، وأن علماء اللغة بعد ذلك حذَوْا حَذْوَه ، وساروا على نهجه ، فكان بذلك شيخ اللغويين ، وعميدهم دون منازِع على مدى الأجيال !

● و«الخليلُ بن أحمد» أولُ من «ضبط اللغة العربية» ووضع لكتابتها هذا الشكل الذى لا يزال مستعملا إلى الآن !

● و«الخليل بن أحمد» أول من استخرج علم موازين الشعر الذى سماه «علم العَروض» [1] واستنبطه من أشعار العرب ، فحصَّن به قصائدهم ، وطرائق نظمهم ، ولولاه لاختلط الشعر بالنثر ، واختلت موازين الشعر !

يا بنى نحن إلى التعلم أحوج منك

كل يوم يمر فى حياة الخليل يزداد فيه علما وتألّقًا ، ويكتشف فى النحو ضوابط وقواعد أدهشت شيوخه ، وأظهرت عبقريتَه ، وأحدق به العلماء يرفعون من شأنه ، ويمدحونه ، فدخل فى نفسه شىء من الاعتزاز الذى يصيب كل الناس .

وذات يوم جاءه رجل ، ومعه غلام ، فقال له هذا ابنى وعزيزى ، ورغبتى إليك أن تكمل تعليمَه ، وتُحْسِنَ إرشادَه ، فقال الخليل للغلام :

اقترب يا بنى ، ودعنى أسألك أسئلة أُدرك بها درجةَ معرفتك .

---

(١) العروض : ميزان الشعر سمي بذلك لأن الشعر يعرض عليه فيظهر المتزن من المنكسر ، أو لأنه ناحية من العلوم ، والعروض الناحية ، أو لأن الخليل ألهم هذا العلم بمكة ، والعروض من أسمائها .

فقال الغلام بجرأة : سلْ مَا تشاء !

قال : يابنى ! أرأيت هذه النخلة ؟

قال : نعم ، قال : فِصفْها لى .

قال : إن لوصفها وجهين ؛ فإما أن يوصَف ما حَسُنَ منها ؛ فتبدو صالحة ؛ وإما أن توصف مساوئها فتبدو سيئة !

أفبمدح أم بذمٍّ تريد أن أَصفَها ؟

قال : أحسنت يا بنى بهذا التفصيل ، وإنى أفضل أن تمدحَ نخلتى ؛ فتحبّبهَا إلىّ .

قال الغلام : إنها حُلْو مُجْتناها [1] ، باسق منتهاها [2] ، ناضِرٌ أعلاها[3] !

قال الخليل : حسن يا بنى ، وعساها أن تكون كما قلت ؛ فذُمّها لى حتى أعرفَ سوءَها .

قال الغلام : إنها صعبةُ المرتَقَى ، بعيدة المجتَنَى ، محفوفة بالأذى !

فنظر الخليل إلى الغلام مشدوها مدهوشا ، وقال فى نفسه: غلام لَمَّا يبلغ الحُلُمَ ، يحسن من الكلام والأدب ما لعل العلماء يَعْجِزون عنه !

والتفت إلى الغلام وقال : يا بنى ؛ نحن إلى التعلُّم أحوجُ منك !

---

(١) المجتنى : ما يجنى منها ، وهو التمر . (٢) باسق : مرتفع .

(٣) الناضر : ماكان ذا رونق وبهجة .

انقطع الخليل فترة للتعلم ، وذات يوم وقف حمار على باب الخليل ، ونزل رجل ومعه ابنه كانا يركبانه وعليهما علائم السفر ، وطرق الرجل الباب طرقا متواصلا ، فأسرع الخليل ، فإذا الرجل وابنه ، فحياهما ، ودعاهما للدخول ، فدخل الرجل ، وهو يظهر الرغبة فى السرعة والعزم على أن يعود فى عجل !

وعرف الخليل ذلك منه ، فأراد أن يُرضى رغبتَه ، ويُحقق له مشيئته ، فسأله عن طلبه ، فشمر الرجل ساعديه ، قائلا : سمعت بنبوغك فجئتك من سفر بعيد متحملا المشاقّ ، وأظن أنك رأيت الحمارَ الذى حملنا ، قال الخليل ، وهو ينتظر ختام القصة : نعم رأيته ، وإنه لجميل !

قال الرجل : أريدك على أن تؤدب ابنى شيئا من علم الهيئة، وأن تعلمه ما يكفيه من النحو ، وأن تلقنه بما يحتاج إليه من الطب ، وأن تفهمه فرائض الفقه !

ثم نظر الرجل إلى الباب ، وأشار إليه وقال :

إن الحمارَ على الباب ينتظر فراغك من ذلك لنعود عليه !

ضحك الخليل فى نفسه ؛ ثم قال :

إلىّ يا بنىّ لأعلمَك ما يرغبُ فيه والدك من هذه العلوم :

● اعلم يا بنىّ أن «الثُّريَّا» [1] فى وسط السماء ، وكفاك بذلك معرفة من علم الهيئة !

● واعرفْ أن «الفاعل مرفوع» ، وبتلك المعرفة بدئ النحو ،

(١) الثريا : مجموعة من النجوم في صورة الثور ، وكلمة «النجم» علم عليها .

ولعله بها يُختم !

● ولتعلم أن «الإهْلِيلجَ الكابُلى» [1] دافع للصفراء ، وهذا من الطب فى مكان عظيم .

● واعلم أنه إن مات أحد وترك ابنين فثروته وممتلكاته وأمتعته تقسم بينهما سواء بسواء ، وذلك أصل «علم الفرائض والمواريث» .

إنك يا بنى إن عرفت ذلك أدركت من العلوم التى ذكرها والدك ما يليق بك - وأنت ابنه - أن تعرف منها !

فشكر الرجل الخليل ، وقال :

قم يابنى ، ولا تنسَ ما قاله الشيخ لك ، وفتح الباب ، فوجدا الحمار فى الانتظار لِيَحْملهما ومعهما العلم الذى أصاباه !

١- علم الهيئة (هو علم الفلك) ...

٢- وعلم النحو ...

٣- وعلم الطب ...

٤- وعلم المواريث ...

داء الحمق ليس له دواء

كان ولدُه «عبد الرحمن» أحمقَ متخلفًا ، وكان والدُه يعانى منه الأمرّين !

وذات يوم زاره أحدُ الشعراء ، وكان «عبد الرحمن» حاضرًا ، واحتاج الخليل إلى شىء فطلب من عبد الرحمن أن يُحضره ، فقال له عبد الرحمن : لن أقوم .

---

(١) الإهليلج : شجر ينبت في الهند وكابل ، والصين ، ثمره على هيئة حب الصنوبر الكبار .

فقال له أبوه : إذا لم تقم فاقعد ، قال : لا أقعد .

قال : فأى شىء تصنع ؟

قال : فأى شىء أصنع ؟

فضحك الشاعر ، وقال : إن لك أن تتعزَّى فلست وحدَك الذى يعانى من الحمق !

إن امرأتى تشبه ابنك عبد الرحمن ، وقد قلت فيها شعرا ، ثم أنشده :

سَكَتُّ فقالت : لِمْ سكَتَّ عَنِ الحقِّ
وقلتُ : فقالتْ : مَن دَعَاك إلى النُّطق؟
فَأَوْمَأْتُ : هَلْ مِنْ حالةٍ بين ذَا وذَا
فقالت : وَذَا الإيماءُ أيضاً منَ الحُمْقِ
فلَمْ أَرَ لِى إذْ حَلَّتِ الغَرْبَ راحةً
مِنَ الشَّرِّ إلاَّ بالهُرُوب إلى الشَّرْقِ
فلَمَّا أتيتُ الشَّرْقَ ألْفَيْتُهَا بِهِ
وقَدْ قَعَدَتْ لِى مِنْه فى أضيق الطُّرق

فضحك الاثنان ، ولم يعجب هذا الكلام عبد الرحمن !

زهد الخليل

كان زاهدًا فى الدنيا مستعدا لداعى الفناء[1] وفى ذلك يقول:

وقبلَك داوَى المريضَ الطبيبُ
فعاشَ المريضُ ، ومات الطبيبُ
فكن مستعداً لداعِى الفَنَاء
فإن الذى هو آتٍ قريبُ

(١) داعى الفَناء ـ بفتح الفاء ـ الموت ، فداعيه لأهل الأرض داع .

راح الخليل ذات يوم يفكر فى أمر قد شغل باله ، وقاده التفكير إلى صحراء خارج البصرة ، فإذا الليل قد أظلم ، وإذا هو يفكر فى العودة ، ولكنه ابتعد كثيرا ، وأمامه درب [1] طويل لابد أن يقطعه حتى يعود!

إن الطريق محفوف بالمخاطر ، وقد يتعرض لما لا تحمد عقباه ، فلم لا يلجأ إلى «صومعة ذلك الراهب» التى مربها يقضى ليله عنده حتى الصباح ؛ فيأمن بذلك شر سباع الصحراء ؟!

وحين وصل إليها طرق بابها ففتحت له «كُوَّة [2] فى أعلى الباب» ، وقد أطل الراهب برأسه منها ، فقال له :

من أنت يا هذا ؟ وماذا تريد ؟

فقال : أنا «الخليل بن أحمد الفراهيدى» ، وأمنيتى إليك أن تسمح لى بقضاء الليل عندك ، فقد داهمنى الظلام ، وأنا فى الطريق إلى بيتى !

نظر إليه الراهب فاحصا فوجده أشعث أغبر ، مرقع الثوب، فأبدى دهشته قائلا :

كيف تكون يا هذا الخليل بن أحمد ، والناس يزعمون أنه واحد فى العلم ، وليس فى العرب مثله؟!

فقال : إن الناس كثيرا ما يبالغون ويُغالون فى الوصف ، ولكن ما الذى يجعلك تشكك فى أمرى ؟

---

(١) الدَّرْب : كل طريق يؤدى إلى ظاهر البلد .

(٢) الكوّة : يفتح الكاف وتضم ، وواو مشددة مفتوحة ـ الفتحة فى الحائط .

قال : لما أراه عليك من مظاهر الفقر والتقشف ، ولا أرى الخليل ، وهو من هو علمًا وابتكارًا يكون على هذه الهيئة ؟!

قال الخليل : أتريد أن أكون كالطاوس أختال فى ثيابى وأزهو بعلمى ؟!

قال الراهب : إنك تحاول أن تخدعنى بكلامك الجميل ، ولن أصدقك إلا بعد أن أمتحنَك وأختبرك!

قال الخليل : سَلْ وعَجِّل .

قال : ألسنا نستدل على الغائب بالشاهد ، فلا نحكم بوجود الغائب إلا إذا كان هناك حاضر يشهد به ؟

قال الخليل : أجل ، فالإنسان لا يعرف الخفى إلا بأثر شاهد يدل عليه .

قال الراهب : أحسنت ؛ إن الخليل يقول :

إن الله تعالى ليس بجسم ولاعَرَض ، فهل ترى شيئا بهذه الصفة حتى تدعى هذه الدعوى ؟! إنك لم تر قط ، أجبنى عن ذلك جوابا مقنعا حتى أصدق بأنك الخليل !

قال : لك ذلك ، إنى استدللت على الله تعالى بأفعاله الدالة عليه ، ولا مثل له ، وفى المُشاهَدِ المعترَفِ به ، المسلّم بأمرِه ما يؤكّدُ ذلك ، تعالى الله عن المشابهة علوًا كبيرا .

ما قولك فى الروح التى فيك ، وفى كل حيوان ؟ ألا تحس بها ، وترى أثرها ، وتُقر بوجودها ، وتدعوها باسمها ، وتحاولُ تهذيبها ، ويبكى الناس لخروجها من عزيز لديهم ، ويخشون زوالها عنهم ، أتدرى أين مستقرها ؟ وكيف هى هيئتها وصفتها وما هو جوهرها ؟ (جوهر الشيء : حقيقته ، وذاته) .

هل تشعر بشىء يخرج من الإنسان الذى يموت ، وأنت تقول: إنها تفارقه حين يفقد الحياة ؟

إنك لا تدرى ، ولا تحسّ بشىء من ذلك ، ثم تؤمن بوجودها، وتدعى أنها ليست جسما كالذى تشاهده، وبعد :فهذا شاهد تُسَلّم به ، وأستشهد به فى دعوايَ، فافتح لى الباب لأدخل .

قال الراهب :

ذلك «أول سؤال» عرفت به شيئا عن حالك ، وعندى «سؤال آخر» ينبئنى بالكثير عنك ، وإنه لتابع للأول :

● ألست تزعم أن الناس فى الجنة يأكلون ، ويشربون ، ولا يتغوّطون [1]؟

قال : نعم .

قال : متى وأين رأيت أناساً بهذه الصفة ؟ وأىُّ شاهد لك على هذا الزعم ؟

قال الراهب ذلك ، وابتسم ابتسامة الواثق بأنه وضعه فى مأزق حرج ، لا قدرة له على الخروج منه!

فأطرق الخليل هنيهة ، ثم رفع رأسه ، وقال :

الشاهد فى ذلك قريب عجيب ، وهو أنت ، وأنا ، وكل الناس .

قال الراهب : ياللعجب ! أتهذرُ [2] أم عجزت ؟

قال : كلا ، وما أقول إلا حقا ، فأنت وأنا ، وكل إنسان مر علينا ما يقرب من حَوْل ، أكلنا فيه وشربنا ، ولم نتغوط .

(١) التغوط : قضاء الحاجة ، وإخراج الغائط والفضلات الناتجة عن عملية الهضم من الجسم .
(٢) الهذر : الكلام بما لا ينبغي . ويقال هذر الرجل في منطقه يهذر هذراً .

قال الراهب : متى ، وأين ؟ قل ولاتعقد .

قال الخليل : إن الإنسان قبل أن يرى هذا العالم يبقى «تسعة أشهر» فى بطن أمه ، وهو يتغذى دون أن يتغوط ، وقد مررت بهذا الدّوْر ، ومررتُ به ، ومرّ كلُّ الناس ، أفبعد هذا الشاهد من بيان ؟

قال الراهب : أحسنت أحسنت !! ياخليل ، صدق من قال : إنك أذكى العرب وأوحدهم .

قال الخليل : هل آن لك أن تفتح لى الباب يا هذا، فقد أظلم الليل ، وتعبت قدماى ؟! وطال وقوفى !!

قال الرهب : لن أدعك تدخل حتى تبين لى الشاهد فى أن نعيم الجنة لا ينقضى مع أن أوله موجود ، فإنى ما أحسبُ أن أمرًا له أول إلا وهو ينقضى ويزول ؟

قال الخليل : لن أذكر لك شاهدَ هذا الأمر إلا إذا وعدتنى بفتح الباب فورا بعد الجواب ، فقد أطلت !

قال : لك ذلك إى وربى !

قال الخليل : هل تعلمت الحساب ؟ قال : نعم .

قال : عُدَّ لى . قال : ماشأن ما نحن فيه والعدّ ؟

قال : لن ترى الجواب إلا به . قال : واحد ، اثنين، ثلاثة ، ومضى فى العدد .

قال الخليل : هل تستطيع أن تقف على عدد ليس به آخر ؟

قال : إنى مهما عددت فهناك رقم أعلى منه .

قال : كذلك نعيم أهل الجنة ، له أول ، وليس له آخر !

وهنا بادر الراهب إلى الباب وفتحه ، واستقبل الخليل بين ذراعيه ، وقال له : إنك لأوحد الدهر حقا ، فادخل وأهلا بك ياخير ضيف ! ياسيد العلماء فى عصرنا !!

نظرته الصائبة إلى غيره

كان الخليل بن أحمد ، صافى النفس ، نقىّ الجوهر متسامحاً مع من يعتدى عليه ، سواء كان فوقه ، أو مساويًا له فى الرتبة ، أو دونه ، إنه يقول:

سَأُلْزِم نفسى الصَّفْحَ عن كل مُذْنب
وإن كَثُرتْ مِنْهُ عَلَىّ الجرائم
وما الناسُ إلا واحدٌ من ثلاثةٍ
شريفٌ ، ومَشْروف [1] ومثل مُقاوم [2]
فأما الذى مثْلى ، فإن ذَلّ أوهَفَا
تَفَضَّلْتُ ، إن الفضلَ بالعزِّ حاكمُ
وأما الذى دُونى ، فإن قال ، صُنْتُ عَنْ
إجابته عِرْضى ، وإن لام لائم

أهناك بعد هذا حكمة ، وسمو ، وتسامح ؟!

وهذه هى أخلاق العلماء ، إذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاما !

درس لا يُنْسى

جلس الخليل بن أحمد ذات يوم يعظ الناس ، وهم له مُنْصتون ، كأن على رءوسهم الطير ، ودموعهم سائلة ،

(١) مشروف مسبوق فى الشرف ، فهناك من هو أشرف منه .
(٢) مقاوم : مناظر ، ومشابه .

وزفراتهم صاعدة !

وإذا بشاب يقف على حلقته زين له الشيطان سوء عمله ينظر إلى الخليل ورفاقه ساخرًا مما يصنعون، وانتظر هذا الفتى الجاهل حتى أتم الخليل وعظه وتوجيهه ، والناس فى الحلقة يقولون : زدنا يا خليل!

ولكن هذا الشاب رفع صوته مشيرا بيده قائلا :

وغيرُ تَقِيٍّ يأمرُ الناسَ بالتُّقَى

طبيبٌ يداوى الناس ، وهو مريضُ

لم يدر هذا الشاب الجاهل قيمة الخليل ، وإخلاصه وصفاءه، وبذله العلم فى سبيل الله ، فراح يعكر عليه ما هو فيه من لذة البذل والعطاء لوجه الله ! تُرى ماذا حدث ؟

تعجب المستمعون مما سمعوه ، واستنكروا ما قاله الشاب ، فهم يعرفون الخليل ، وغضب بعضهم مما سمعه ، وأسرعوا لتأديب ذلك السفيه ، ولكن الخليل أشار إليهم ألا يفعلوا ، ونادى الغلام قائلا :

اسمع ما أقوله يا بنى واحفظه :

اِعمَلْ بعِلْمِى ، ولاتَنْظُرْ إلى عَمَلِى

يَنْفَعْكَ عِلْمى ، ولايَضُرُّكَ تقصيرى !

فسكت الشاب خجلاً مما قاله للشيخ !

وعاد الخليل إلى ما كان فيه ، والتأم شملُ الحلقة : وكان ما فعله الخليل درسا لا يُنسى فى الحلم ، والأناة ، والتعقل !

ونظر الخليل بعد فإذا بالشاب يجلس مع الجالسين وقد هداه الله ، وامتلأ قلبه بهداه !

الخليل وابن المقفع

اجتمع «الخليل بن أحمد» و«عبد الله بن المقفع» ليلة يتحدثان إلى الغداةِ.

فلما تفرقا ، قيل للخليل : كيف رأيت ابن المقفع ؟

فقال : رأيت رجلا علمُه أكثر من عقله !

وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟

فقال : رأيت رجلا عقله أكثر من علمه !

فأى الرجلين تحب أن تكون فى عصر أصبحت السيادة فيه للعلم وتطبيقاته ؟ لقد قال عبد الملك بن مروان لبنيه :

يابنى ؛ تعلموا العلم ... فإن كنتم سادة فُقْتُمْ ... وإن كنتم وسطا سُدْتم ... وإن كنتم سوقة [1] عشتم ...

الكسائى والخليل

من منّا لا يعرف الكسائى «إمام الكوفيين» فى النحو واللغة ، وأحد القُرّاء السبعة ؟!

إنه أبو الحسن على بن حمزة الذى نشأ بالكوفة ، وتعلّم على الكبر بعد لحنة [2] لحنها أمام جمع من طلبة العِلم ! ، فلازم أئمة الكوفة حتى ألَمّ بكل ما عندهم.

ثم خرج إلى «الخليل» بالبصرة ، وجلس فى حلقته، وأعجبه علمه، فقال له : من أين علمك هذا ؟

---

(١) السوقة : الرعية ، وأوساط الناس ، وتطلق على الواحد وغيره ، فيقال : هو سوقة ، وهم سوقة والجمع سوق .

(٢) اللحنة المَرّة الواحدة من اللحن ، وهو الخطأ فى الإعراب ، ومخالفة وجه الصواب ، فهو لاحن ، وإن كثر منه اللحن فهو لَحّان .

قال : من بوادى الحجاز ، ونجد ، وتهامة ، فخرج إليها ، وأنفد خمس عشرة قِنِّينَة [1] حبر فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظ عنهم .

وفى عالم النحو نذكر «سيبويه» إمام البصريين كما نذكر «الكسائى» إمام الكوفيين ، وكلاهما يدين بالفضل للخليل بن أحمد نابغة العرب أجمعين ، وسيد أهل الأدب ومخترع العروض، ومبتكر المعجمات ، وصاحب الشكل العربى المستعمل الآن !

العلوم أربعة

قال الأصمعى : قال الخليل بن أحمد : العلوم أربعة :

١- فعلم له أصل وفرع . ٢- وعلم له أصل ولا فرع له.

٣- وعلم له فرع ولا أصل له . ٤- وعلم لا أصل له ولا فرع .

● فأما العلم الذى له أصل وفرع فالحساب ، ليس بين أحد من المخلوقين فيه خلاف .

● وأما الذى له أصل ولا فرع له ؛ فالنجوم ليس لها حقيقة يبلغ تأثيرها فى العالم - يعنى الأحكام والقضايا على الحقيقة [2] .

● وأما الذى له فرع ولا أصل له فالطب ! ، أهله منه على التجارب إلى يوم القيامة !

● والعلم الذى لا أصل له ولا فرع ، فالجدل [3] !

قال أبو بكر الصولى : يعنى الجدل بالباطل .

(١) القنينة : القارورة ، وهى وعاء من زجاج كان يضم الحبر السائل .

(٢) إنما الفاعل المؤثر فى الحقيقة هو الله ـ سبحانه ـ وإليه يرجع الأمر كله .

(٣) طريقة فى المناقشة والاستدلال صورها الفلاسفة بصور مختلفة وهو عند مناطقة المسلمين: «قياس مؤلف من مشهورات أو مسلمات» وقد أمرنا ألا نجادل إلا بالتى هى أحسن .